المجلس الحادي عشر

الوقف شاهدٌ على حضارة المسلمين وعزهم

المجلس الحادي عشر

الوقف شاهدٌ على حضارة المسلمين وعزهم

سادت حضارة المسلمين الشرق والغرب حتى حققت لهم الأوقاف الإسلامية الاكتفاء الذاتي عن الحاجة لغيرهم من الأمم والشعوب مصداقًا لقول النبي ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها ...»[١].

بل أصبحت الأمم والشعوب تحتاج إلى المسلمين وصناعاتهم وعلمهم وتطورهم، فلم يبق غرض من أغراض الحياة إلا وقف المسلمون الأوائل عليه فعفوا بذلك فقيرهم، وحصَّنوا أيِّمهم، وسدُّوا خلة محتاجهم، وأطعموا جائعهم وكسوا عاريهم، وداوَوْا مريضهم، وقاموا بذلك حق قيام حتى صار يشار بالبنان إلى حضارة المسلمين.

والملاحظ عبر تاريخ العصور أن المجتمعات متى ما اهتمت بالوقف واعتنت به عزّت وظفرت وسادت، ومتى تخلّت عنه أو أهملته أو اعتدت عليه ذلّت وصغرت في عيون أعدائها وتسلطوا عليها.

وهكذا

... عندما كانت أمة الإسلام في عزّة ومنعة كانت أوقافها شامخة تغطي احتياجاتها وتقوم بمصالحها ولما تأخّرت الأمة في شأن الأوقاف تسلّط عليها الأعداء واستعمروا ديارها وبدأوا بالأوقاف فاستولوا عليها وتملكوها وتقاسموا ممتلكاتها، والله المستعان...

يقول شكيب أرسلان: الإفرنج لا يكرهون شيئا في الدنيا كرههم للأوقاف الإسلامية ولا يخافون في مستعمراتهم من شيء كمخافتهم منها، لأنهم يعتقدون أن المسلمين إذا أحسنوا إدارتها وضبط حاصلاتها كان لهم منها منبع إعداد عظيم في أمورهم السياسية فلذلك

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

تراهم يسعون بقدر طاقتهم في محو رسومها(١).

ومما يشهد لعزّ المسلمين وغلبتهم قيام الأوقاف الإسلامية بأدوار متعددة في جميع بلاد الإسلام، حيث كانت المساجد والمشافي والمدارس وعموم مرافق الدولة تقوم على الأوقاف وريعها وغلّتها حتى أُوقِفَتْ مدنٌ بأكملها على إصلاح أحوال المسلمين والقيام بشؤونهم، ومن تلك الأوقاف الإسلامية التي ترسم لنا ملامح الرحمة والرأفة في عصر الدولة الأيوبية ما قام به صلاح الدين ﷺ حيث أقام وقفًا لإنشاء ميزاب يسيل منه الحليب في إحدى القلاع بدمشق، كما جعل ميزابًا آخر يسيل منه الماءُ المذابُ فيه السكر، وتأتي الأمهات إليه يومين في الأسبوع ليأخذن منه ما يحتجن إليه من الحليب والسكر كما ذكر ذلك بعض المؤرخين، وذكر بعضهم أن الذي حمله على ذلك هو ما أصاب بعض نساء المسلمين من شحوبٍ وهُزَالٍ(٢).

وعلى صعيد الوقف الصحي فقد اهتمّ الأمير نور الدين محمود زنكي ﷺ بإنشاء المستشفيات الخيرية في كل المدن التابعة لدولته، وقد أوقف عليها ما لا يكاد يُحصى من الأوقاف، فمن المستشفيات المشهورة في الإسلام المستشفي النوري الكبير الذي أنشأه نور الدين محمود ﷺ بدمشق عام ٥٤٩ هـ، وقد وقفه على الفقراء والمساكين، وكان من أحسن المستشفيات في الدنيا، وظل يعملّ حتى عام ١٣١٧ للهجرة أي قرابة ثمانمائة عام(٣).

لقد سادت حضارة المسلمين الأوائل سائر الأمم فكانت أمتنا الإسلامية محطّ أنظار العالم، حتى كان الإفرنج والروم ينهون أولادهم عن تقليد المسلمين أو التشبه بهم.

---

(١) ينظر: الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، شكيب أرسلان، ص٩٠.

(٢) ينظر: من روائع حضارتنا لمصطفي السباعي: ص٩٨، ٩٩.

(٣) ينظر: الروضتين في تاريخ الدولة النورية، أبو شامة المقدسي: ٩/١.

ورحم الله شاعر الإسلام محمد إقبال يوم قال:

كنا جبالًا في الجبال وربما ... صرنا على موج البحار بحارًا

بمعابد الإفرنج كان أذاننا ... قبل الكتائب يفتح الأمصارًا

لم تنس أفريقيا ولا صحراؤها ... سجداتنا والأرض تقذف نارًا[١]

ومن عجائب الأوقاف ونوادرها التي كانت تنبئ عن عزّ المسلمين وظفرهم ونصرهم وغلبتهم الوقف على تسلية أهل المصائب، ووقف الأعراس بحيث يوقف الحُليُ وبعض أدوات الزينة لكي تستعيرها المحتاجة من نساء المسلمين وتحضر به الزواج وتعيده بعد ذلك، ومنها وقف الأواني لمن لا يجد أو لمن انكسرت آنيته فخاف من سيده عقابًا أو حرمانًا، بل من عجائب الأوقاف أنها طالت حتى البهائم العجماوات، ومن ذلك الوقف على طيور الحرمين الشريفين وإطعامها وكذلك الوقف على أجنحة الطيور المكسورة، بل والوقف -أجلكم الله- على الكلاب التائهة ...[٢].

جاء في كتاب التربية الوقفية أن أَحد المحسنين أراد أن يوقف في سبيل الله فذهب إلى قاضي القاهرة في حينه يستشيره في غرض الوقف (مصرف الوقف) فكان كلما عرض عليه غرضًا من أغراض الوقف أفاده القاضي بأن له وقفًا خاصًا به، حتى دلّه القاضي على غرض لم يوقِف عليه أحد!! فما هو يا ترى؟

أشار عليه القاضي أن يوقف على بغلة شيخ الأزهر بحيث يصرف من هذا الوقف على هذه الدابة في علفها ونفقتها ورعايتها[٣].

---

(١) الأبيات لمحمد إقبال، وله ديوان مطبوع.

(٢) ينظر: تاريخ مكة المكرمة والحرم الشريف لابن الضياء: (ص٢٤٧)، رحلة ابن بطوطة (ص٩٩، وما بعدها)، حاضر العالم الإسلامي لشكيب أرسلان: (٨/٣).

(٣) ينظر: التربية الوقفية -الأمانة العامة للأوقاف أُنْمُوذَجًا- دولة الكويت، (ص: ١٢٥).

إنك بقدر شعورك بالعزّ والفخر من تذكر هذه الحادثة وغيرها إلا أنه يعتريك الأسى والندم على حال المسلمين اليوم، والله المستعان.

ويستقى من ذلك عدة فوائد:

* ما كان عليه المسلمون من عزّة وما كانوا فيه من حضارة وتقدّم على سائر الأمم والشعوب.
* قيام الأوقاف الإسلامية بسدّ حاجات المسلمين المختلفة وتعدد مصارف الأوقاف وتنوعها لتشمل الحاضر والمسافر والغني والفقير والذكر والأنثى والصحيح والعليل.
* مراعاة الأوقاف للجوانب الإنسانية وإعفاف المحتاج أو المريض من المسلمين وإغناؤه عن سؤال الناس.

وكأن المعادلة الحضارية تقول:

إذا رأيت أمّة عزيزة قوية فتأكد أن عنايتها بالأوقاف كبيرة والعكس بالعكس .. متى انحدرت الأمة في أوحال الذل والتبعية فتأكد أن أوقافها معطلة أو منهوبة، والواقع خير شاهد على ذلك، والله المستعان وعليه التكلان.